بداية الهداية

للإمام حجة الإسلام

أبي حامد محمد بن محمد الغزالي

٤٥٠ - ٥٠٥ هـ

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام
علىٰ سيِّدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه

ترجمة المؤلف :

هو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي ، أبو حامد ، حجّة الإسلام ، ومحجة الدين .

اختُلِف في ضَبطِ نسبة الغزالي ، فالبعضُ اختارَ تَشْديد الزاي ، نسبةً لصناعة الغزل ؛ لأنَّ والدَهُ وجَدَّهُ كانا يغزلان الصوفَ ؛ وهذه نسبةٌ صحيحةٌ من حيث الواقع ولكن الغزالي نفسه رَدَّ علىٰ ذلك بقولِهِ : النَّاسُ يقولون لي الغَزالي ، ولست الغزّالي ، وإنما أنا الْغَزالي ، منسوبٌ إلىٰ قريةٍ يُقالُ لها : غزالة[1] .

أما الطُّوسيُّ فنسبةً إلىٰ مدينة طُوس الواقعة علىٰ أميال من مشهد علي الرِّضا بن موسىٰ الكاظم ، وتتألف طُوس من الطّابَران ونُوقان .

---

(١) راجع « سير أعلام النبلاء » للذهبي ١٩/ ٣٤٣ .

ولد أبو حامد الغزالي سنة ٤٥٠هـ = ١٠٥٨م في طوس ، من أسرة صالحة .

كان أبوه رجلاً فقيراً صالحاً ، يأكلُ من كَسْب يده من غزل الصوف . وكان يطوف علىٰ الفقهاء والوعّاظ ، ويجالِسُهم ويتوفَّرُ علىٰ خِدْمَتهم ، ويجدُّ في الإحسان إليهم والنفقة بما يُمْكِنُه عليهم . وكانَ إذا سَمِع كلامَهُم بكىٰ وتضرَّعَ ، وسألَ اللهَ أن يرزقه ابناً ويجعله فقيهاً واعظاً .

فكان أبو حامد أَفْقَهَ أقرانه ، وكان أخوه الأصغر منه أحمد واعِظاً ينْفَلِتُ صمُّ الصخور عند استماع تحذيره ، وترتَعِدُ فرائصُ الحاضرين في مجالس تذكيره .

توفِّيَ والد الغزاليِّ ولا يزال أبو حامد صغيراً ، وكان قد وصّىٰ بولديه محمد وأحمد إلىٰ صديقٍ له متصوِّفٍ ، بأن يتعهَّدهما بالتربية والتعليم .

فلما أن نَفِدَ المالُ الذي أورثهما والدهما ، نصحهما الوصي أن يلتحقا بمدرسة من مدارس العلم ، التي كانت تمدُّ طلابَها بما يلزمهم من النفقة .

قرأ الغزاليُّ في صباه طرفاً من الفقه ببلده طُوس علىٰ أحمد بن محمد الرَّاذَكاني الطُّوسِيّ ، وكذلك كان أستاذه الأول بها يوسف النَسَّاج .

ثم سافر الغزاليُّ إلىٰ جُرْجان ، ولمَّا يبلغِ العشرين بَعْدُ ، وقرأ علىٰ كثيرٍ من علمائها منهم أبو نَصْر الإِسْماعِيلي .

ومن غير المعروف مدة إقامته في جُرْجَان ، غيرَ أنَّ من المعلوم أنَّهُ مَكَثَ في طُوس ثلاث سنين بعد عَوْدَتهِ منها ، يراجِعُ ما تلقاه في جُرْجان علىٰ إِثْرِ الحادِثَةِ المشهورة : حادثة سرقة اللصوص لكتبه . يقول الغزاليُّ عن هؤلاء اللصوص :

فَتَبِعْتُهُمْ ، فالتفتَ إِليَّ كبيرُهُم ، وقال : وَيحك ! ٱرْجعْ وإلا هَلَكتَ . فقلتُ : أسألكَ بالذي تَرْجُو السلامة منه أنْ تردَّ عليَّ تعليقتي فقط ، فما هي بشيءٍ تَنْتَفِعون به ؛ فقال لي : وما هي تعليقَتُك ؟ فقلت : كُتُبٌ في تلك المِخْلاةِ ، هاجَرْتُ لسماعِها وكتابَتِها ومعرفة عِلْمِها . فضَحِكَ ، وقال : كيف تَدَّعي أنك عَرَفْتَ عِلْمَها وقد أخَذْناها منك ، فتجرَّدْتَ من مَعْرِفتها وبقيتَ بلا علمٍ ! . ثم أَمَرَ بعضَ أصحابه فسلَّم إليَّ المخلاة .

قال الغزاليُّ : فقلتُ : هذا مُسْتَنْطَقٌ أنطقَهُ اللهُ ليرشدني به في أمري . فلما وافيتُ طوس أقبلْتُ علىٰ الاشتغال ثلاثَ سنين حتىٰ حفظْتُ جميعَ ما علّقته ، وصرتُ بحيث لو قُطِع عليَّ الطريق لم أتجرّدَ من عِلْمي . اهـ .

بعد السنين الثلاثة ، سافر أبو حامد الغزاليُّ إلىٰ نَيْسَابور كبرىٰ

مدن خُرَاسان ، حيث إمامُ الحرمين ركن الدين عبد الملك بن عبد الله الجُوَيْنيّ المتوفىٰ سنة ٤٧٨هـ = ١٠٨٥م، رئيس المدرسة النِّظامِيّة . فجدَّ واجْتَهَدَ حتىٰ بَرَعَ في المذهب والخلاف والجدل والفقه والتوحيد والمنطق والحكمة والفلسفة وغيرها .

وفي نَيْسابور ابتدأ الغزاليُّ حياةَ الكتابة والتأليف ، وبقي هناك حتىٰ وفاةِ إمام الحرمين عام ٤٧٨هـ = ١٨٠٥م حيث خرج من نَيْسابور متوجِّهاً نحو المُعَسْكَر قاصداً الوزير السَّلْجُوقي نِظام المُلْك .

كان عمر حجَّة الإسلام أبي حامد إذ ذاك ثمانية وعشرين عاماً ، وكان متزوِّجاً حينئذٍ ؛ لأنَّ التاريخ يُحَدِّثُنا بأنَّهُ تزوّج قبل بلوغه العشرين ، وعاش له ثلاث بنات ، وكان له ولد ماتَ في طفولته ، اسمه حامد ، وهو سبب تكنّيه بأبي حامد .

كان المعسكر ـ كما يقول زويمر Zwemer ـ محطَّ رِحَال السلاطين السَّلْجُوقيِّين ، مُنَسَّقاً علىٰ أحسن نسق ، مفصَّلاً بميادين وشوارع ؛ كأنَّه مدينةٌ شادَتْها قوّةُ السِّحر علىٰ سهولة قاحلة ، حوىٰ مجموعةً أنيقة لألوان من الخيام والمساكن المختلفة .

وعند نظام الملك ظهر الغزاليُّ علىٰ أقرانِهِ ، واعترفَ الناسُ له بقوة عارضته واتساع دائرة معرفته ؛ وطار اسمه في الآفاق واشتهر في الأقطار ؛ فأرسله نظام الملك عام ٤٨٤هـ = ١٠٩١م للتدريس في مدرسته ببغداد ، عاصمة العالم الإسلامي بالشرق ؛ وذلك بعد أن

أمضىٰ ست سنوات إلا قليلاً في المعسكر .

عاش الغزاليُّ في بغداد في أكبر مركز علمي تتشوَّفُ إليه النفسُ في ذلك الزمان ؛ في بحبوحةٍ من العيش ، وعريضٍ من الجاه ؛ إذ كان يستشيره الخليفة والوزراء في الأمور الهامة .

وكان الغزاليُّ قد تمكَّنَ قبل قدومه بغداد من علم الكلام ، وفي بغداد أتقن علوم الفلاسفة ، ويحدّثنا عن قصة حياته العلمية في كتابه « المنقذ من الضلال » فيفيدنا بأنه وجد علم الكلام وافياً بمقصوده ، غير وافٍ بمقصودِ الغزاليِّ ، وكذلك لم يجدِ الغزاليُّ الشفاء عند الفلاسفة ، ولكنَّهُ وَجَدَ عند المتصوفة بَرْدَ اليقين وطمأنينةَ المعْرِفَةِ ، لكن التصوُّفَ يزيد علىٰ غيره من العلوم بالعَمَلِ فضلاً علىٰ التعلُّم .

فعزفَ عن مظاهر الدُّنْيا ، وعزمَ علىٰ الخروجِ من بغداد .

يقول الغزاليُّ :

فَلَمْ أَزَلْ أتردَّدُ بين تجاذبِ شهوات الدنيا ودواعي الآخرة ، قريباً من سِتَّةِ أشْهُر ، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربع مئة ، وفي هذا الشهر جاوز الأمرُ حدَّ الاختيار إلىٰ الاضطرار ، إذا أقْفَلَ اللهُ علىٰ لساني حتّىٰ اعْتَقَل عن التَّدْريس ، فكنتُ أجاهدُ نفسي أن أدَرِّسَ يوماً واحداً تطبيباً لقلوبِ مختلفة إِلَيَّ ، فكانَ لا ينطقُ لساني بكلمةٍ واحِدَةٍ ولا أستطيعها أَلْبَتَّةَ ، حتىٰ أَوْرَثَتْ هذه العُقلةُ في اللسان حُزْناً في

القلب ، بَطَلَتْ معه قوَّةُ الهَضْمِ ومراءة الطعام والشراب ، فكانَ لا ينْسَاغُ لي ثريدٌ ولا تنهضم لي لُقْمةٌ ؛ وتعدَّىٰ إلىٰ ضعف القوىٰ ، حتىٰ قَطَعَ الأطباءُ طَمَعَهُم مِنَ العلاج ؛ وقالوا : هذا أمرٌ نزل بالقلب ، ومنه سرىٰ إلىٰ المِزاج ، فلا سبيلَ إليه بالعلاج ، إلا بأن يتروَّح السرّ عن الهمّ الملمّ .

ثم لما أحسَسْتُ بعَجْزي ، وسقط بالكليّة اختياري ، التجأتُ إلىٰ اللهِ تعالىٰ التجاء المضْطَرِّ الذي لا حيلةَ له ، فأجابني الذي يجيبُ المضْطَرَّ إذا دعاه ، وسهّل علىٰ قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأهل والولد والأصحاب ، وأظهرتُ عَزمَ الخروج إلىٰ مكَّة وأنا أُدَبِّرُ في نفسي سفر الشام ، حذراً أن يَطَّلِعَ الخليفةُ وجملةُ الأصحاب علىٰ عزمي علىٰ المقام في الشام[1] .

فاحْتَجَزَ من ماله ما يكفيه وأولاده ، وتصدَّقَ بالباقي ، وخرج إلىٰ الشام .

يقول الغزالي :

وكان الخروجُ من بغداد سنة ثمان وثمانين وأربع مئة[2] = ١٠٩٥م .

---

(١) « المنقذ من الضلال » : ١٠٤ .

(٢) « المنقذ من الضلال » : ١٢٢ .

ويقول الغزاليُّ :

ثم دخلتُ الشامَ ، وأقمْتُ بها قريباً من سنتين ؛ لا شغلَ لي إلا العزلةُ والخلوة والرياضة والمجاهدة ، آشْتغالاً بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالىٰ كما كُنْتُ حصّلته من علم الصوفية . فكُنْتُ أعْتَكِفُ مدَّةً في مسجد دمشق ؛ أصعد منارة المسجد طُولَ النهارِ ، وأُغلق بابَها علىٰ نفسي .

ثم تحرَّكَتْ فيَّ داعيةُ فريضة الحج ، والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة رسول الله ﷺ بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله وسلامه عليه ، فسرْتُ إلىٰ الحجاز .

ثم جَذَبَتْني الهِمَمُ ، ودعواتُ الأطفال إلىٰ الوَطَن ، فعاوَدْتُهُ بعد أن كُنْتُ أبْعَدَ الخَلْقِ عن الرجوع إليه[1] .

وخلال هذه الفترة زارَ مِصْرَ ودخل القاهرة .

بعد هذه السياحة التي استغرقت أكثر من عشر سنوات مرّ الغزاليُّ علىٰ بغداد في طريق عودته إلىٰ مسقط رأسه طوس .

وفي طوس لازمَ بَيْتَهُ ، مشتغلاً بالعبادة وتعليم الطلبة ، إلىٰ أنْ جاءَ أمْرُ الوزير فخر الملك علي بن نِظامِ المُلْك كي يدرِّسَ في نِظامِيَّةِ نَيْسابور .

---

(١) « المنقذ من الضلال » : ١٠٥ ـ ١٠٦ .

يقول الغزاليُّ :

فقدَّرَ اللهُ تعالىٰ أنْ حَرَّكَ داعية سلطان الوقْتِ من نفسه ، لا بتَحْريكٍ من الخارج ، فأَمَرَ أَمْرَ إلزامٍ بالنهوض إلىٰ نَيْسابور لتدارك هذه الفترة ، وبَلَغَ الأَمْرُ حدّاً كادَ ينتهي ، لو أصْرَرْتُ علىٰ الخِلاف ، إلىٰ حدِّ الوحشة ، فخطر لي أن سبب الرخصة قد ضعف[1] .

وهكذا ذهبَ الغزاليُّ إلىٰ نَيْسابور ليدرِّس بمدرستها .

يقول الغزاليُّ :

وأنا أعْلَمُ أنّي وإنْ رجعتُ إلىٰ نَشْرِ العلم ، فما رَجَعْتُ ؛ فإنَّ الرجوعَ عَوْدٌ إلىٰ ما كان ، وكُنْتُ في ذلك الزمانِ أنْشُرُ العِلْمَ الذي به يُكسب الجاه ، وأدعو إليه بقولي وعملي ؛ وكان ذلك قَصْدِي وَنِيَّتي .

وأمَّا الآن ؛ فأَدْعو إلىٰ العِلْم الذي به يُتْرَكُ الجاهُ ، ويُعْرَفُ به سقوط رتبة الجاه . هذا هو الآن نيَّتي وقَصْدِي وأُمْنِيتي ، يعلمُ اللهُ ذلك منِّي[2] .

وهكذا مكَثَ الغزاليُّ في نَيْسابور ما شاءَ اللهُ أن يَمْكُثَ ، ثم عادَ

---

(١) « المنقذ من الضلال » : ١٢١ .

(٢) « المنقذ من الضلال » : ١٢٣ .

إلىٰ طوس ولم يبرحْها بَعْدُ ، وبنىٰ بجوار دارِهِ مدرسةً للفُقَهاء ، ومأوىٰ للصوفية . ثم توفي يوم الاثنين في ١٤ جمادىٰ الآخرة سنة ٥٠٥هـ = ١٨ كانون الأول/ ديسمبر ١١١١م ، بحضرة شقيقِهِ أحمد ، ودفن شرق الحصن في طُوس بمقبرة الطَّابَران ، قريباً من قبر الفِرْدَوْسِيّ الشاعر المشهور .

هذا الكتاب :

قال عنه مرتَضَىٰ الزَّبيدي : وهو مُخْتَصَرٌ في المَوْعِظَة ، ذكَرَ فيه ما لا بُدَّ للعامة من المكلَّفين من العادات والمعاملات . اهـ .

انفردَ هذا الكتاب ببَعْضِ الأحكام التي تُعَدُّ مما ٱنْفرَدَ بها المؤلِّفُ وتُنْسَبُ له في كتب الفقه ، وإنْ كانَتِ الفَتْوَىٰ علىٰ خلافِهِ ، منها : مَسْحُ الرَّقبة ، وضمُّ الأصابع عند ضرب التراب في التيمُّم ، وسنَّة الجمعة ست ركعات .

له شرحٌ ٱسمُهُ : « مراقي العبودية » للعالم الفاضل والورع الكامل الشيخ محمد نَوَوِيّ بن عمر بن عربي بن علي الجاوي ، طبع مرات كثيرة في القاهرة .

له شرحٌ ٱسْمُهُ : « الكفاية » لعبد القادر بن أحمد الفقيه ، طبع في القاهرة سنة ١٢٩٦هـ = ١٨٧٩م .

له تلخيصٌ لمحمد النَّوَوي البغوي ، طبع بالقاهرة سنة ١٣٠٦هـ = ١٨٨٨م .

وقد تُرْجِمَ الكتابُ إلىٰ الإنكليزية عام ١٩٥٣ من قبل المستشرق الإنكليزي مونتيغمري واط Montgomery Watt ؛ طُبِعَتِ الترجمة ضمن The faith and practice of Al-Gazzali ، لندن ، ١٩٥٣م . تقع الترجمة بين الصفحات ٨٦ إلىٰ ١٥٢ ، وقد ٱعْتَمَدَ في الترجمة علىٰ نَصِّ طبعة القاهرة سنة ١٣٥٣هـ = ١٩٣٤م ، ثم وقف عند بداية الصفحة ٤٠ قائلاً : إن المحتمل أن يكون باقي الكتاب منحولاً ! . اهـ . من « مؤلفات الغزالي » لعبد الرحمن بدوي .

وترجم كذلك إلىٰ الألمانية من قِبَلِ J.Hell Die Religion des Islam, vol I, Jena 1915 (2.Aufl 1923) (Religiose Stimme der Volker) .

هذه الطبعة :

اعتمدتُ في إخْراجِ هذه الطَّبْعة علىٰ « مراقي العبودية » للعالم الفاضل والورع الكامل الشيخ محمد نَوَوي بن عمر بن عربي بن علي الجاوي ، وكان بين يديَّ نسخةٌ مطبوعَةٌ في أواخر شهر رمضان المعظم عام ١٣١٧هـ = ١٨٩٩م بالمطبعة الحميدية المصرية بإدارة حضرة الشيخ محمود البيطار الحلبي الْكُتُبي .

ومن هذا الشرح أخذتُ اختلافَ النُّسَخِ .

وبعد ، فقد اعتاد كلٌّ من السيد الدكتور هيثم والسيّد طريف وجميع أفراد عائلة المرحوم الحاج هشام حسن الجفان أن يطبعوا كلَّ عام كتيّباً يكون من الصدقات الجارية التي تفيد فقيدهم رحمه الله في مآله ؛ متمثّلين قولَ الرسول ﷺ : « إِذَا ماتَ ٱلإِنْسَانُ ٱنْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاثَةٍ : إِلاّ مِنْ صَدَقَةٍ جارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صالِحٍ يَدْعُو لَهُ » رواه مسلم ، رقم : ١٦٣١ ؛ والترمذي ، رقم : ١٦٧٦ ؛ والنسائي ، رقم : ٣٦٥١ ؛ وأبو داود ، رقم : ٢٨٨٠ ؛ والإمام أحمد في « مسنده » ، رقم : ٨٦٢٧ ؛ والدارمي ، رقم : ٥٥٩ .

وكان اختيارهم لعامنا ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م هذا الكتاب الذي بين يديك ؛ فجزاهم الله كل خير .

نسأل الله تعالى أن يرحمنا ووالدينا وكلّ من له فضل علينا ؛ فجزاهم الله كل خير .

دمشق في ١/ ٣/ ٢٠٠٠م

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قالَ الشَّيْخُ الإمامُ ، العالِمُ العلاّمَةُ حُجَّةُ الإسلامِ ، وبَرَكَةُ الأنامِ ؛ أَبُو حامِد محمد بن محمد بن محمد الغَزالِيُّ الطُّوسِيُّ قَدَّسَ اللهُ روحَهُ ، ونوَّرَ ضَريحَهُ ؛ آمين :

الْحَمْدُ للهِ حقَّ حَمْدِهِ ، وَالصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ خَيْرِ خَلْقِهِ ، محمَّدٍ رسولِهِ وعبدِه ، وَعَلىٰ آلِهِ وصَحْبِه مِنْ بَعْدِهِ .

أما بَعْدُ ؛ فَاعْلَمْ أيُّها الحريصُ [المُقْبِلُ] علىٰ اقْتِباسِ[1] العِلْمِ ، المظْهِرُ مِنْ نَفْسِهِ[2] صِدْقَ الرَّغْبةِ وفَرْطَ التَّعطُّشِ إلَيْه ؛ أَنَّكَ إنْ كُنْتَ تقْصدُ بطَلَب العلمِ المنافسَةَ والمُباهاةَ ، والتَّقَدُّمَ علىٰ الأقران ، واسْتِمالَةَ وُجوهِ النَّاسِ إلَيْكَ ، وجَمْعَ حُطام الدُّنْيا ، فَأَنْتَ ساعٍ في هَدْمِ دِينِكَ ، وإهْلاكِ[3] نَفْسِك ، وبَيْعِ آخِرَتِكَ بدُنْياك ؛ فصَفْقَتُكَ خاسِرَةٌ ، وتجارَتُكَ بائِرَةٌ ، ومُعَلِّمُكَ مُعِينٌ لك علىٰ عِصْيانِكَ ، وشَرِيكٌ لك في خسْرانِكَ ، وهُوَ كبائِعِ سَيْفٍ مِنْ قاطِعِ

---

(١) في نسخة : « اقتناص » .
(٢) في نسخة : « من نفسك » .
(٣) في نسخة : « هلاك » .

طريقٍ كما قَالَ ﷺ : « مَنْ أَعَانَ عَلىٰ مَعْصِيَةٍ وَلَوْ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ كَانَ شَرِيكاً لَهُ فِيهَا »[1] ؛ وَإِنْ كانَتْ نِيَّتُكَ وقَصْدُكَ بَيْنَكَ وبَيْنَ اللهِ تعالىٰ مِنْ طَلَبِ العِلْمِ الهدايَةَ دونَ مجرَّدِ الرِّوايَة ، فَأَبْشِرْ ، فَإِنَّ الملائِكَةَ تَبْسُطَ لكَ أَجْنِحَتَها إِذَا مَشِيتَ ، وَحِيتانُ البَحْرِ تَسْتَغْفِرُ لك إِذا سَعَيْتَ .

ولكنْ يَنْبَغي لَكَ أَنْ تَعْلَمَ قَبْلَ كلِّ شَيْءٍ أَنَّ الهدايَةَ ، الَّتي هِيَ ثمرَةُ العِلْم ، لها بدايَةٌ ونهاية ، وظاهِرٌ وباطِنٌ ؛ ولا وصولَ إلىٰ نهايَتِها إلاَّ بعد إحكام بدايَتِها ، ولا عثورَ[2] علىٰ باطِنها إلا بعد الوقوف علىٰ ظاهِرِها . وَها أَنَا مُشِيرٌ عَلَيْكَ بِبدايَةِ الهِدايَةِ لِتُجَرِّب بها نَفْسَك ، وتَمْتَحِنَ بها قَلْبَكَ ؛ فَإِنْ صادَفْتَ قَلْبَك إِلَيْها مائِلاً ، ونَفْسَكَ بها مُطاوِعَةً وَلها قابِلَةً ؛ فَدونك التطلُّعَ إلىٰ النهايات والتَّغَلْغل[3] في بحار العلوم ؛ وإن صادَفْتَ قَلْبَكَ عنْدَ مَواجَهَتِكَ إيَّاها بها مُسَوِّفاً ، وَبالعَمَل بمُقْتَضاها مماطِلاً ؛ فَاعْلَمْ [أَيُّها الطَّالبُ] أَنَّ نَفْسَكَ المائِلَةَ إلىٰ طَلَبِ العِلْمِ هي النَّفْسُ الأَمَّارَةُ بالسُّوءِ ، وقد انْتَهَضَتْ مُطيعةً للشيطانِ اللَّعينِ لِيُذْلِيكَ بِحَبْلِ غرورِهِ ، فَيَسْتَدْرِجُكَ بِمَكيدَتِهِ إلىٰ غَمْرَةِ الهلاك ؛ وقَصْدُهُ أنْ يُرَوِّجَ عليك الشَّرَّ في مَعْرِضِ الخيْرِ حَتَّىٰ يُلْحِقَكَ

---

(١) نقله في « فيض القدير شرح الجامع الصغير » في شرح الحديث رقم : ٩٨٢٢ عن الغزالي ، وراجع « سنن ابن ماجه » رقم : ٢٦٢٠ .

(٢) في نسخة : « عبور » .

(٣) بالغينين ، أي : « التغلغل » وبالفاءين ، أي : « التفلفل »

بالأخسرين أعمالاً ، ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [١٨ سورة الكهف/ الآية : ١٠٤] وعندَ ذلك يَتْلُو عَلَيْكَ الشيطانُ فَضْلَ العِلْم ، ودَرَجَةَ العُلَماء ، وما وَرَدَ فيه من الأخبارِ والآثار ؛ وَيُلْهِيكَ عن قولِهِ ﷺ : « مَنِ ٱزْدَادَ عِلْماً وَلَمْ يَزْدَدْ هُدىً لَمْ يَزْدَدْ مِنَ ٱللهِ إِلاَّ بُعْداً »[1] وعَنْ قَوْلِهِ ﷺ : « [إِنَّ] أَشَدَّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعْهُ اللهُ بِعِلْمِهِ »[2] . وَكانَ ﷺ يقولُ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ ، وَقَلْبٍ لا يَخْشَعُ ، وَعَمَلٍ لا يُرْفَعُ ، وَدُعاءٍ لا يُسْمَعُ »[3] وَعن قولِهِ ﷺ : « مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بي بِأَقْوَامٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ ، فَقُلْتُ : مَنْ أَنْتُمْ ؟ قَالُوا : كُنَّا نَأْمُرُ بِٱلْخَيْرِ وَلا نَأْتِيهِ ، وَنَنْهَىٰ عَنِ ٱلشَّرِّ وَنَأْتِيهِ »[4] فَإِيَّاكَ يَا مِسْكين أَنْ

---

(١) قال العراقي في تخريجه لأحاديث « الإحياء » : أخرجه أبو منصور الديلمي في « مسند الفردوس » إلا أنه قال : « زهداً » بدلاً من « هدى » . اهـ . راجع « الجامع الصغير » الحديث رقم : ٨٣٩٧ حيث نسبه للديلمي في مسند الفردوس عن علي .

(٢) قال في « الجامع الصغير » : رواه الطبراني في « الصغير » ، وابن عدي في « الكامل » ، والبيهقي في « شعب الإيمان » عن أبي هريرة ، وقال العراقي : إسناده ضعيف ، وكذلك السيوطي ، ورواه ابن عساكر أيضاً .

(٣) « مسند أحمد » ، رقم : ١٣٢٦٢ .

(٤) « مسند أحمد » ، رقم : ١١٨٠١ و١٢٤٤٥ و١٣٠٠٨ و١٣١٠٣ .

تذْعِنَ لِتَزْويرِهِ فَيُذْلِيك[1] بحَبْلِ غُرورِهِ ، فَوَيْلٌ لِلْجاهلِ حَيْثُ لم يتعلَّمْ مَرَّةً واحِدَةً ، ووَيْلٌ للعالِمِ حَيْثُ لَمْ يَعْمَل بِمَا عَلِمَ أَلْفَ مَرَّة .

وٱعْلَمْ أنَّ النَّاسَ في طَلَبِ ٱلْعِلْمِ علىٰ ثلاثَةِ أحْوال : رَجُلٌ طَلَبَ العِلْمَ لِيتَّخِذهُ زَادَهُ إلىٰ المَعادِ وَلَمْ يقْصِدْ به إلا وَجْهَ اللهِ وَالدَّارَ الآخِرَةَ ، فَهَذَا من الفائِزين . وَرَجُلٌ طَلَبَهُ لِيَسْتَعينَ به عَلىٰ حياتِهِ العاجِلَةِ وينالَ بِهِ العِزَّ وَالجاهَ والمالَ وَهُوَ عَالِمٌ بذلك مُسْتَشْعِرٌ في قَلْبِهِ رَكاكَةَ حَالِهِ[2] وَخِسَّةَ مَقْصِدِهِ ، فَهَذا مِنَ المُخاطِرين ، فَإِنْ عاجَلَهُ أَجَلُهُ قَبْلَ ٱلتَّوْبَةِ خِيفَ عَلَيْهِ من سُوءِ الخاتِمةِ وَبَقِيَ أَمْرُهُ في خَطَرِ ٱلمَشِيئَةِ ، وَإِنْ وُفِّقَ للتَّوْبَةِ قَبْلَ حُلولِ الأَجَلِ وَأَضَافَ إلىٰ الْعِلْمِ العَمَلَ وَتَدَارَكَ مَا فَرَّطَ فِيهِ مِنْ ٱلْخَلَلِ ٱلْتَحَقَ بالفائِزِينَ ، فَإِنَّ « التائِبَ من الذَّنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ »[3] . وَرَجُلٌ ثالِثٌ اسْتَحْوَذَ عليه الشيطانُ فاتَّخَذَ عِلْمَهُ ذَرِيعَةً إلىٰ التَّكاثُرِ بالمالِ والتَّفاخُرِ بالجاهِ والتعزُّزِ بكَثْرَةِ الأَتْباع ، [و]يَدْخُلُ بِعِلْمِهِ كُلَّ مَدْخَل رجاءَ أَنْ يَقْضِيَ من الدُّنيا وَطَرَهُ ، وَهُوَ مع ذلك يُضْمِرُ في نَفْسِهِ أَنَّهُ عَنْدَ اللهِ بمكانَةِ[4] لاتِّسامِهِ بِسِمَةِ[5] العُلماء ، وتَرسُّمِهِ

---

(١) في نسخة : « وتدلّىٰ » .
(٢) في نسخة : « قلبه » .
(٣) ابن ماجه ، رقم : ٤٢٥٠ .
(٤) في نسخة : « بمكان » .
(٥) في نسخة : « بسيمة » .

برسومِهِمْ في الزِّيِّ والمَنْطِقِ ، مع تَكالُبِهِ على الدُّنْيا ظاهِراً وَباطناً ؛ فَهَذا من الهالِكِينَ وَمِنَ الحمْقَىٰ المغرورين ؛ إِذِ الرَّجاءُ مُنْقَطِعٌ عن تَوْبَتِهِ ، لِظَنِّهِ أَنَّهُ من المُحْسِنِينَ ، وَهُو غافِلٌ عن قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [٦١ سورة الصف/ الآية : ٢] وَهُوَ مِمَّن قال فِيهِمْ رسولُ الله ﷺ : « أَنَا مِنْ غَيْرِ الدَّجَّالِ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ مِنَ الدَّجَّالِ » ، فَقِيلَ : وَمَا هُوَ يا رَسولَ الله ؟ فقال : « عُلماءُ السُّوءِ »[1] وهذا لأنَّ الدَّجَّالَ غايَتُهُ الإضْلال . ومِثْلُ هذا العالِم ، وَإِنْ صَرَفَ النَّاسَ عَنِ الدُّنْيا بِلِسانِهِ ومقالِهِ ، فَهُوَ داعٍ لهم إِلَيْها بأعمالِهِ وأحوالِهِ ؛ وَلِسانُ الحالِ أَفْصَحُ[2] منْ لِسانِ المقالِ ، وَطِباعُ الناسِ إلىٰ المُساهَمَةِ[3] في الأعمال أَمْيَلُ منْها إلىٰ[4] المتابعة في الأقوال ؛ فما أَفْسَدَهُ هذا المغرورُ بأعمالِهِ أَكْثَرُ مِمّا أَصْلَحَهُ بأقوالِهِ ، إِذْ

---

(١) أخرجه أحمد رقم : ٢٠٧٨٩ عن أبي ذرّ بإسناد جيد ، تخريج الإحياء ؛ ورواه مسلم في أخر « الصحيح » رقم : ٢٩٣٧ بلفظ : « غير الدجال أخوفني عليكم » ، ثم ذكر حديثاً طويلاً .
وراجع « كنز العمال » رقم : ٢٩٤١٤ حيث خرجه (ش ر حم دع) والدورقي عن علي .
وراجع « كنز العمال » رقم : ٨٨٧٣ حيث خرجه أبو يعلى .

(٢) في نسخة : « أنطق » .

(٣) في نسخة : « المساعدة » .

(٤) في نسخة : « إليها من » .

لا يَسْتَجْرِىءُ الجاهِلُ علىٰ الرّغْبةِ في الدُّنْيا إلا بٱسْتِجْرَاءِ العلماءِ ، فَقَدْ صارَ عِلْمُهُ سَبباً لِجَراءَةِ[1] عِبادِ اللهِ علىٰ معاصِيهِ ، وَنَفْسُهُ الجاهِلَةُ مُدِلَّةٌ مَعَ ذلك تُمَنِّيهِ وَتُرَجِّيه ، وَتَدْعُوهُ إِلىٰ أَنْ يَمُنَّ عَلىٰ اللهِ بِعِلْمِهِ ، وتُخَيِّلُ إِلَيْهِ نفسُهُ أَنّهُ خَيْرٌ مِنْ كثيرٍ من عِبادِ اللهِ .

فَكُنْ أيُّها الطالِبُ مِنَ الفَريقِ الأَوَّلِ ، وَٱحْذَرْ أَنْ تَكونَ من الفَريقِ الثَّاني ، فَكَمْ مِنْ مُسَوِّفٍ عَاجَلَهُ الأَجَلُ قَبْلَ التَّوْبَةِ فَخَسِرَ .

وَإِيَّاكَ ثُمَّ إِيَّاكَ أَنْ تَكونَ مِنَ الفريقِ الثَّالِثِ ، فَتهلكَ هلاكاً لا يُرْجَىٰ مَعَهُ فلاحُك ، ولا يُنْتَظَر صلاحُكَ .

فَإِنْ قُلْتَ : فما بِدَايَةُ الهِدَايَةِ لأُجَرِّبَ بها نَفْسِي ؟ فَٱعْلَمْ أَنّ بِدَايَتَها ظاهِرَةُ التَّقْوَىٰ ، ونِهايَتَها باطِنَةُ التَّقْوَىٰ ؛ فلا عَاقِبَةَ إِلا بِالتَّقْوَىٰ ، ولا هِدايَةَ إِلا لِلمُتَّقِين .

وَالتَّقْوَىٰ عِبَارَةٌ عَنِ امْتِثالِ أوامرِ اللهِ تَعالىٰ واجتنابِ نواهِيهِ ، فَهُمَا قِسْمان ، وها أَنَا أُشِيرُ عَلَيْكَ بِجُمَلٍ[2] مختَصَرةٍ من ظاهِرِ عِلْمِ التَّقْوىٰ في القِسْمَيْنِ جَميعاً ؛ وَأُلْحِقُ به قِسْماً ثالثاً ليصير هذا الكتابُ جامعاً مغنياً ، واللهُ المستعانُ .

---

(١) أو : « لِجُرْأَةِ » .

(٢) في نسخة : « بجملة »